المجاز العقلى

بين عبد القاهر والمتأخرين

الأستاذ الدكتور

الشحات محمد أبو ستيت

أستاذ البلاغة والنقد

ووكيل كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

تقديم :

يتـألف الأسلوب من إسناد كلمة إلى أخرى، وهذا الإسناد قد يكون على سبيل الحقيقة، بأن يسند الشئ إلى ما هو له كما تقول : ربح التاجر، فتسند الربح إلى التاجر، وهو فاعله الحقيقى، ويسمى هذا الإسناد حقيقة عقلية، كما يسمى حقيقة حكمية وإسنادية.

وقد يكون الإسناد على سبيل المجاز بأن يسند الشئ إلى غير ما هو له كما تقول: ربحت التجارة، فتسند الربح إلى التجارة، وهى ليست فاعلة له، إنما هى سبب فيه، ويسمى هذا الإسناد مجازا عقليا، كما يسمى مجازا حكميا وإسناديا.

وسمى الإسناد فى هذين القسمين من الكلام عقليا لاستناده إلى العقل دون الوضع اللغوى، لأن إسناد كلمة إلى أخرى يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة، فلايصير «قام» مسندا إلى «زيد» بواضع اللغة، بل بفعل المتكلم الذى أراد إثبات القيام له، وهذا من تصرفات العقل، كما سمى حكميا وإسناديا لتعلقه بالحكم والإسناد لابلفظ معين فى الجملة.

وهذا البحث يتناول بالدراسة جوانب المجاز العقلى، مرتكزا على المقارنة بين آراء الإمام عبد القاهر وآراء من جاء بعده من البلاغيين وفى مقدمتهم أبو يعقوب السكاكى والخطيب القزوينى.

نشأة البحث فى المجاز العقلى:

عرف المجاز العقلى باعتباره طريقا من طرق التعبير منذ بداية البحث فى علوم اللغة، فقد عرض العلماء المتقدمون لبعض أمثلته دون ذكر اسمه، فسيبويه يقف أمام قول الخنساء:

ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت فإنما هى إقبـال وإدبـار

ويعلق عليه بقوله : فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام، كقولك: نهارك صائم، وليلك قائم، كما عرض لأمثلة أخرى مبينا أنها على سبيل التوسع فى الكلام والاستخفاف[١]. وأبو عبيدة يشير إليه فى مجال مايقع المفعول إلى الفاعل[٢]، ويقول فى قوله تعالى : (والنهار مبصرا) [٣] له مجازان: أحدهما أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم فى موضع الفاعل، والمعنى أنه مفعول، لأنه ظرف يفعل فيه غيره، ولأن النهار لايبصر، ولكنه يبصر فيه الذى ينظر، وفى القرآن الكريم (فى عيشة راضية) [٤] وإنما يرضى بها الذى يعيش فيها، قال جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت ومالیل المطى بنائم

والليل لا ينام وإنما ينام فيه... [٥]

والفراء يحلل بعض أمثلته دون تسميته ومنها قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم) [٦]، وقوله تعالى (فى يوم عاصف) [٧] حيث قال فيه: جعل العصوف تابعا لليوم فى إعرابه، وإنما العصوف للريح وذلك

---

(١) انظر الكتاب: ١/١٧٦، ٣٣٧.

(٢) مجاز القرآن: ١/٦٣.

(٣) يونس: ٦٧.

(٤) القارعة : ٧.

(٥) مجاز القرآن : ١/٢٧٩.

(٦) البقرة : ١٦. وانظر معانى القرآن : ١/١٥.

(٧) إبراهيم :١٥.

جائز.. لأن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به لأن الريح فيه تكون، فجاز أن تقول: يوم عاصف، كما تقول يوم بارد، ويوم حار [١].

وخطا ابن قتيبة خطوة أوسع حين ذكر بعض صوره فى باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه فقال: ومنه- أى من هذا الباب- أن يجئ المفعول به على لفظ الفاعل كقوله سبحانه (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) [٢] أى لامعصوم من أمره. وقوله (من ماء دافق) [٣] أى مدفوق. وقوله (فى عيشة راضية) [٤] أى مرضى بها... [٥] ومنه أن يأتى الفاعل على لفظ المفعول به وهو قليل، كقوله تعالى (إنه كان وعده مأتيا) [٦] أى آتيا [٧].

وهذه الإشارات وغيرها مهدت السبيل أمام الشيخ عبد القاهر لبحثه فى صورة موسعة وعلى نهج دقيق، حيث سماه، وحده، وعرض لعلاقته وقرينته وغير ذلك من مسائله، وفرق بينه وبين المجاز اللغوى، وتوسع فى تحليل أمثلته، مما يجعله رائد البحث فى هذا الموضوع وأبو عذرته دون منازع، وتبعه فى ذلك البلاغيون من بعده. وقد أشار العلوى إلى هذا فقال: اعلم أن ماذكرناه فى المجاز الإسنادى العقلى هو ماقرره الشيخ النحرير

---

(١) معانى القرآن: ٢/٧٣.

(٢) هود : ٤٣.

(٣) الطارق: ٦.

(٤) القارعة : ٧.

(٥) تأويل مشكل القرآن : ٢٩٦.

(٦) مريم : ٦١.

(٧) تأويل مشكل القرآن : ٢٩٨.

عبد القاهر الجرجانى، جائز.. لأن القاهر الجرجانى، واستخرجه بفكرته الصافية، وتابعه على ذلك الجهابذة من أهل هذه الصناعة كالزمخشرى وابن الخطيب الرازى وغيرهما (١)

تعريف المجاز العقلى:

وضابطه عند الإمام عبد القاهر: كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول، كقولهم: فعل الربيع النور، وكما جاء فى الخبر «إن مما ينبت الربيع مايقتل حبطا أو يلم» فقد أثبت الإنبات للربيع، وذلك خارج عن موضعه من العقل، لأن إثبات الفعل لغير القادر لايصح فى قضايا العقول، إلا أن ذلك على سبيل التأول، وعلى العرف الجارى بين الناس، أن يجعلوا الشئ إذا كان سببا أو كالسبب فى وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل. فلما أجرى الله سبحانه العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار، وتظهر الأنوار، وتلبس الأرض ثوب شبابها فى زمان الربيع صار يتوهم فى ظاهر الأمر ومجرى العادة كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع، فأسند الفعل إليه علي هذا التأويل والتنزيل (٢).

وهذا تحليل دقيق لطبيعة هذا الأسلوب، وضع فيه الشيخ أول تعريف للمجاز العقلى، وبين أن مبناه على التأول، وجعل سبب الفعل أو ماهو كسببه فاعلا له.

وعرفه السكاكى بأنه: الكلام المفاد به خلاف ماعند المتكلم من الحكم فيه، لضرب من التأويل، إفادة للخلاف لابوساطة وضع، كقولك: أنبت الربيع البقل.. وشرح التعريف وأخرج محترزاته فقال: وإنما قلت: خلاف

---

(١) الطراز: ٢٥٧/٣.

(٢) أسرار البلاغة: ٣٣٣-٣٣٥.

ماعند المتكلم من الحكم فيه، دون أن أقول: خلاف ما عند العقل، لئلا يمتنع طرده بما إذا قال الدهرى أو الجاهل: أنبت الربيع البقل، رائيا ذلك، فإنه لايسمى كلامه مجازا وإن كان بخلاف العقل فى نفس الأمر... ولئلا يمتنع عكسه بمثل: كسا الخليفة الكعبة... فليس فى العقل امتناع أن يكسو الخليفة نفسه الكعبة... (١)

وهو بهذا يعترض على تعريف الشيخ عبد القاهر الذى نص فيه على أن الحكم فى هذا المجاز خارج عن موضوعه فى العقل. وقد رد الخطيب علي هذا الاعتراض حيث لم يسلم امتناع طرده بما ذكر، لخروجه بقوله: لضرب من التأول، فهذا يخرج نحو قول الجاهل: أنبت الربيع البقل، من دائرة المجاز لأنه لا تأول فيه. كما لم يسلم امتناع عكسه بما ذكر، لأن المراد بخلاف ماعند العقل، خلاف ما فى نفس الأمر، لأن معنى ماعند العقل، مايقتضيه العقل ويرتضيه، لامايحضر عنده ويرتسم فيه، ونحو كسا الخليفة الكعبة، خلاف مافى نفس الأمر (٢). وبذلك تظهر سلامة الحد الذى وضعه الشيخ عبد القاهر للمجاز الحكمى.

ويواصل السكاكى إخراج محترزات التعريف فيقول : وإنما قلت لضرب من التأويل ليحترز به عن الكذب، فإنه لايسمى مجازا مع كونه كلاما مفيدا خلاف ما عند المتكلم، وإنما قلت: إفادة للخلاف لابوساطة وضع، احترازا عن المجاز اللغوى فى صورة، وهى إذا ادعى أن أنبت موضوع لاستعماله فى القادر المختار، أو وضع لذلك، فإن المجاز حينئذ يسمى لغويا وضعيا لاعقليا، وإنما قلت: بوساطة وضع على التنكير، ليشمل وضع اللغة

---

(١) مفتاح العلوم: ٣٩٣، ٣٩٤.

(٢) بغية الإيضاح: ١/ ٧١، والمطول : ٥٩، ٦٠.

إن ادعى، ووضع غيرها إن ارتكب[١]. وقد تعقبه الخطيب فى هذه القيود مبينا عدم الحاجة إليها[٢].

وحد المجاز العقلى عند الخطيب: إسناد الفعل أو مافى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول. وقوله: إلى ملابس له، يعنى إلى شئ بينه وبين الفعل أو مافى معناه ملابسة وارتباط وتعلق بوجه من الوجوه، وهو بهذا يشير إلى حتمية وجود علاقة فى هذا المجاز كسائر المجازات، وتقوم هنا على ملابسة الفعل أو مافى معناه لما أسند إليه مجازا من جهة وقوعه عليه، أو فيه، أو بسببه، ونحو ذلك. وقوله: غير ماهو له، أى إلى شئ من شأنه أن يسند إليه على سبيل الحقيقة لأنه غير مختص به. وقوله: بتأول، يشير إلى أنه لابد من وجود قرينة تصرف الإسناد عن الحقيقة إلى المجاز، وبهذا القيد يخرج من المجاز الأقوال التى تطابق الاعتقاد دون الواقع كقول الجاهل شفى الطبيب المريض، ونحوه، لأنها لا تقوم على التأول بل هى مراد القائل ومعتقده، كما يخرج الأقوال الكاذبة، فإنه لا تأول فيها، حيث يطلقها قائلها وفق مراده وهو عالم بكذبها.

وعلى هذا فما لم توجد قرينة تدل على أن الإسناد مجازى مبنى على التأول فالكلام حقيقة. والقرينة قد تكون لفظية: بأن يوجد فى كلام القائل مايدل على أن إسناد الفعل لما أسند إليه وارد على سبيل المجاز كأن يقول: شيبتهم الأيام والليالى، وأفناهم الله تعالى. فقد أسند الفعل فى الجملة الأولى للأيام والليالى ثم أسند نظيره فى الجملة الثانية لله تعالى وقد دل قوله الثانى على أن الأول من قبيل المجاز.

---

(١) مفتاح العلوم: ٣٩٤.

(٢) انظر بغية الإيضاح: ١/ ٢٧١، ٢٧٢.

وقد تكون القرينة معنوية: كاستحالة صدور الفعل من المسند إليه أو قيامه به عقلا كأن تقول: أتى بى الشوق إلى لقائك، أو عادة كأن تقول : بنى الوزير المدرسة، وهزم القائد الأعداء، وكصدور الكلام من المؤمن كما إذا قال: شفى الطبيب المريض، حيث يدل اعتقاده على أنه يسند الشفاء إلى الطبيب على سبيل المجاز لا الحقيقة.

وحديث القرينة عند الشيخ عبد القاهر واف بكل جوانبها، ومنه أخذ البلاغيون، وهذا يوجب علينا ذكره لينهل القارئ من مورده العذب. قال الشيخ: واعلم أنه لايجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الشئ الذى أثبت له الفعل مما لايدعى أحد من المحقين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير فى وجود المعنى الذى أثبت له، وذلك نحو قول الرجل: محبتك جاءت بى إليك، وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها: هن مخرجاتى من الشام، فهذا مالايشتبه على أحد أنه مجاز.

وإما أن يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لايثبت الفعل إلا للقادر، وأنه ممن لايعتقد الاعتقادات الفاسدة.. فإذا سمعنا نحو قول- الصلتان العبدى-:

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ ـــر كر الغداة ومر العشى

وقول أبى الإصبع :

أهلكنا الليل والنهار معـا والدهر يغدو مصمما جذاعا[1]

---

(١) مصما: ماضيا فى سيره. جذعا: شاب قوى لايهرم.

كان طريق الحكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقاد التوحيد إما بمعرفة أحوالهم السابقة، أو بأن تجد فى كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو مايكشف عن قصد المجاز فيه كنحو ماصنع أبو النجم فإنه قال أولا:

ميز عنه قنزعا عن قنـزع مر الليالى أبطئ أو أسرعى[١]

فهذا على المجاز وجعل الفعل لليالى ومرورها، إلا أنه خفى غير بادى الصفحة، ثم فسر وكشف عن وجه التأول، وأفاد أنه بنى أول كلامه على التخيل فقال:

أفناه قيل الله للشمس اطلعى حتى إذا واراك أفق فارجعى

فبين أن الفعل لله وأنه المعيد والمبدئ والمنشئ والمفنى، لأن المعنى فى «قيل الله» أمر الله، وإذا جعل الفناء بأمره فقد صرح بالحقيقة، وبين ما كان عليه من الطريقة[٢].

وينبغى أن تعلم أن قول الصلتان العبدى السابق قد عرف أنه من المجاز من وجهين :

الأول: كون قائله مؤمنا موحدا وهذا مايشير إليه كلام الشيخ عبد القاهر. والثانى قوله بعد ذلك فى أبيات القصيدة :

فملتنا أننا المسلمون على دين صديقنا والنبى

فهذا صريح فى بيان حاله من الإيمان، فيكون كلامه الأول على سبيل المجاز[٣]، وبذلك اجتمع فى قول الصلتان قرينة معنوية وقرينة لفظية.

---

(١) ميز: فصل، والضمير فى عنه لرأسه المذكور قبل، والقنزع: الشعر المجتمع فى نواحى الرأس.

(٢) أسرار البلاغة: ٣٣٧، ٣٣٨.

(٣) انظر حاشية الدسوقى: ١/٢٤٤.

قصور تعريف الخطيب:

وتعريف الخطيب للمجاز العقلى غير جامع لكافة صوره، فمنها مالايدخل فيه، إذ قد خصه بإسناد الفعل أو مافى معناه دون غيرهما من صور الإسناد، مع أن الإسناد المجازى يجرى فى صور أخرى، ومنها[١]:

١- وصف الفاعل أو المفعول بالمصدر كقول الخنساء تصف الناقة الواله على ولدها.

ترتع ماغفلت حتى إذا ادكرت فإنما هى إقبال وإدبار

ففى قولها: إنما هى إقبال وإدبار مجاز عقلى، حيث أسندت الإقبال والإدبار إلى الناقة، وجعلتها كذلك، ونظيره قولهم : رجل عدل.

فهذا وما شابهه من إسناد الأسماء الجامدة لايدخل فى المجاز العقلى عند الخطيب، كمالايدخل فى الحقيقة العقلية، لأنه قصرهما على إسناد الفعل أو ما فى معناه، كما أسلفنا.

وقد بين الشيخ عبد القاهر أن قول الخنساء من المجاز الحكمى، حيث جعلت الناقة لكثرة ماتقبل وتدبر، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها، وأنه لم يكن لها حال غيرهما، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، ورفض أن يكون هذا من قبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه على تقدير: فإنما هى ذات إقبال وإدبار، لأنا إذا جعلنا المعنى على ذلك أفسدنا الشعر على أنفسنا. وخرجنا إلى شئ مغسول، وإلى كلام عامى مرذول.. وإلى شئ يعزل البلاغة عن سلطانها، ويخفض من شأنها، ويصد أوجهنا عن محاسنها، ويسد باب المعرفة بها وبلطائفها علينا. فقوله الخنساء مبنى

---

(١) انظر المطول: ٥٨، ٥٩.

على المبالغة والاتساع بجعل الناقة كأنها قد صارت بجملتها إقبالا وإدبار، حتى كأنها قد تجسمت منهما، فأما أن يكون موضوعاً على حذف المضاف الذي هو فى حكم المنطوق به فمما لامساغ له عند من كان صحيح الذوق صحيح المعرفة، نسابة للمعانى[١].

٢- **وصف الشئ بوصف محدثه وصاحبه:** مثل الكتاب الحكيم والأسلوب الحكيم، فقد وصف الكتاب والأسلوب بالحكمة، وهو وصف لصاحبهما، وبذلك أسند المبنى للفاعل إلى المفعول، إلا أنه ليس المفعول الذى يلابسه ذلك المسند، بل فعل آخر من أفعاله مثل أنشأت الكتاب، وهذا ليس داخلا فى تعريف الخطيب لأن كلامه ظاهر فى أن المفعول الذى يكون الإسناد إليه مجازا يجب أن يكون مما يلابسه فى المسند. ومثل هذا ما أسند إلى المصدر والذى يلابسه فعل آخر من أفعال فاعله نحو: الضلال البعيد، والعذاب الأليم، فإن البعيد ليس هو الضلال وإنما هو الضال، والأليم ليس هو العذاب وإنما هو المعذب بكسر الذال، فمعنى الفعل هنا مسند إلى المصدر الذى يتعدى له بواسطة حرف الجر مثل: بعد فى ضلاله وألم فى عذابه[١]، وفى قوله تعالى **(أولئك فى ضلال بعيد)**[٢] يقول الزمخشرى: فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قلت: هو من الإسناد المجازى، والبعد فى الحقيقة للضال، لأنه هو الذى يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جد جده[٣]. وذكر السعد أن

---

(١) انظر دلائل الإعجاز: ٣٠٠-٣٠٣.

(٢) إبراهيم : ٣.

(٣) الكشاف : ٣٦٦/٢.

هذا مايمكن أن يدخل فى تعرف الخطيب، إذا اعتبرنا أن الملابسة أعم من أن تكون بواسطة حرف أو بدونها، والصور المذكورة من قبيل الملابسة بواسطة حرف والأصل: هو حكيم فى أسلوبه وكتابه، ويعيد وأليم فى ضلاله وعذابه، فتكون مما بنى للفاعل وأسند إلى المفعول أو المصدر بواسطة[١].

٣- **النسبة الإضافية**: وهى النسبة الواقعة بين المضاف والمضاف إليه، وتكون هذه النسبة من المجاز العقلى عندما يضاف الشئ إلى ملابس ماهو له، نحو أعجبنى إنبات الربيع وجرى الأنهار، فنسبة الإنبات للربيع مجاز عقلى علاقته الزمانية، ونسبة الجرى للأنهار مجاز عقلى علاقته المكانية. ومن هذا قوله تعالى **(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها)**[٢] والشقاق: الخلاف والنزاع، و«بين» ظرف مكان. وفى إضافة الشقاق إلى البين مجاز عقلى علاقته المكانية، والأصل شقاقا بينهما. وفى التعبير القرآنى مبالغة فى إثبات الشقاق بينهما، وقوة فى بيان أثره المدمر على العلاقة الزوجية، فهو شقاق نابع من البين نفسه، ليمزق هذا البين القائم على الود والرحمة. ومنه قوله تعالى **(وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً)**[٣] ففى إضافة المكر إلى الليل والنهار مجاز عقلى علاقته الزمانية، فالمكر يحدث

---

(١) المطول: ٥٨.

(٢) النساء: ٣٥.

(٣) سبأ: ٣٣.

فيهما. والتعبير القرآنى يشعر بمواصلة المكر وتواليه ليلا ونهارا دون ملل أو كلل، ويسبغ الحياة الفاعلة على الليل والنهار إشارة إلى أهميتهما الكبيرة فى حدوث المكر واحتوائه حتى نسب إليهما.

٤- **النسبة الإيقاعية:** وهى نسبة الفعل للمفعول. وتكون من المجاز العقلى عندما يقع الفعل علي ملابس ماهو له. كقولك: أجريت النهر، فإيقاع الإجراء على النهر مجاز عقلى علاقته المكانية والأصل: أجريت الماء فى النهر، ومن هذا قوله تعالى (ولاتطيعوا أمر المسرفين) [١] فإيقاع الإطاعة على الأمر مجاز عقلى وحقها الإيقاع على صاحب الأمر لأنه هو المفعول به حقيقة فالأصل: ولاتطيعوا المسرفين فى أمرهم [٢]. والتعبير القرآنى يشير إلى علو المسرفين وكبريائهم، وهوان عامة القوم وضعفهم، حيث تصدر الأوامر إليهم من المسرفين، وهم يطيعونها وينفذونها دون تدبر ولاتأمل، وقد عطلوا عقولهم فلا يدركون مافى هذه الأوامر من ضلال مبين.

ومن هذا قول القائل: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا، فإيقاع السؤال على الأرض مجاز عقلى علاقته المكانية. ومن هذا قول حافظ إبراهيم:

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

فإيقاع المساءلة على الليل والنهار مجاز عقلى علاقته الزمانية، والمجاز العقلى فى النسب الإضافية والإيقاعية الذى عرضنا لك بعض

---

(١) الشعراء: ١٥١.

(٢) أنظر حاشية الدسوقى: ١/ ٢٤٠.

أمثلته، لايشمله تعريف الخطيب، لأنه جعل الجنس فى تعريف المجاز العقلى هو الإسناد، والإسناد يكون في النسب التامة، والنسب الإضافية والإيقاعية ليست نسبا تامة عندهم، فهى غير داخلة في الإسناد، وأشار سعد الدين إلى إمكانية دخول هذه النسب فى التعريف، إذا أريد بالإسناد مطلق النسبة سواء كانت تامة أو غير تامة، أو أريد به ماهو أعم من أن يكون مدلولا عليه بصريح الكلام، فيدخل فيه ما يكون الكلام مستلزما له، والمجازات المذكورة وإن لم تكن إسنادات صريحة لكنها مستلزمة لها، حيث جعل فيها البين شاقا، والليل والنهار ماكرين، والأمر مطاعا، وهكذا[1].

٥- **جعل الفاعل المجازى تمييزا**، كقولك: هم أكرم دارا، فدارا تمييز محول عن الفاعل، وهو فاعل مجازى لأن أصل التعبير : كرمت دارهم، فأسند الكرم إلى الدار على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المكانية، ومن هذا قوله تعالي **(أولئك شر مكانا وأضل سبيلا)** [2] فسبيلا تمييز محول عن الفاعل المجازى والأصل: ضل سبيلهم، وإسناد الضلال إلى السبيل مجاز عقلى علاقته السببية، لأن السبيل الذى اتبعوه سبب ضلالهم، وفى التعبير القرآنى مبالغة وقوة فى وصفهم بالضلال البعيد، لأنه إذا كان طريقهم هو أضل الطرق، فهم من باب أولى أضل الناس.

وعدم دخول الصور التى ذكرناها فى تعريف الخطيب للمجاز العقلى تجعلنا نرجح تعريف الشيخ عبد القاهر لهذا اللون من المجاز.

---

(١) انظر المطول: ٥٩، وحاشية الدسوقى: ١/ ٢٤٠.

(٢) الفرقان: ٣٤.

علاقات المجاز العقلى:

عـرفت مما سبق أن المجـاز العـقلى لابد له من عـلاقـة تصـحح وروده، وهذه العـلاقـة تقوم على الملابسـة بين المسند والمسند إليـه. وقـد بين الخطيب علاقات هذا المجاز بقوله: وللفعل ملابسات شتى: يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصـدر، والزمان، والمكان، والسبب[1]. فالعلاقات الواردة فى كلامه ست:

١- **الفاعلية:** وتكون بإسناد مـابنى للمـفـعـول إلى الفـاعل الحـقـيـقى، كـقـولهم: سـيل مـفـعم- بفـتح العين اسم مـفـعـول- وأصله من أفـعم السيل الوادى، إذا ملأه، فالسيل فاعل لامفعول، لأنه هو الذى يفعم، وهنا قد جعل مفعولا، حيث أسند الإفعام إلى ضميره، وفى هذا مجاز عـقلى، لأن الأصل أن يسند الإفـعـام إلى الوادى الذى هو المفـعـول، فـيـقـال: سيل مفعم واديه، وفى الأسلوب مبـالغة في وصف السيل بكثرة الماء، وذلك بجعل الإفعام واقعا عليه، فهو سيل مملوء بالماء، وهذا يدل على قـوة فـيـضـه علي الوادى وتمام غـمره له. ومنه فى رأى بعـضـهم قـوله تعـالى **(إنه كـان وعده مـأتيـا)** [2] حـيث أسند «مـأتيا» إلى ضـمير الوعـد، والأصل أن الوعـد آت، والمأتى مـافيـه. وقـوله تعـالى **(جـعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخـرة حجابا مستورا)** [3] حيث أسند «مستورا» إلى ضمير الحجاب، وهو فى الأصل ساتر، والمستور هو المحجوب. والتعبير فـى الآيـة

---

(١) بغية الإيضاح: ١/٦٤. ٦٥.

(٢) مريم: ٦١.

(٣) الإسراء: ٤٥.

الأولى مشعر بتحقق الوعد، فهو وعد ثابت مستقر يؤتى إليه لنيل مافيه، وفى الآية الثانية مشير إلى قوة الحجاب ومنعته، فهو حجاب مستور لا يستطيعون انتهاكه، وبالتالى لايمكنهم الوصول إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من خلاله.

٢- **المفعولية:** وتكون بإسناد مابنى للفاعل إلى المفعول به الحقيقى، من ذلك قوله تعالى **(فهو فى عيشة راضية)** [١] حيث أسند الرضا إلى ضمير العيشة، وهى فى الأصل مفعول لافاعل، لأنها مرضية، والراضى صاحبها، وفى التعبير القرآنى تصوير للعيشة بأنها عاقلة شاعرة بالنعيم الذى يغمرها، راضية عنه، مما يدل على عظم النعيم وفخامته، وهذا يبين ماسيكون فيه المؤمن من النعيم المقيم، ومنه قوله تعالى«**خلق من ماء دافق**»[٢] ففى إسناد دافق إلى ضمير الماء مجاز عقلى، والأصل ماء مدفوق أو ماء دافق صاحبه. والتعبير القرآنى مشعر بقوة اندفاع الماء، وحيويته، مما يجعله مؤهلا لأن يوجد منه الجنين. ومنه قوله تعالى(**أو لم نمكن لهم حرما آمنا**) [٣] فإسناد «آمنا» إلى ضمير الحرم إسناد مجازى، والأصل أن الحرم مأمون، والآمن ساكنوه، والتعبير القرآنى يخلع الحياة على الحرم، ويجعله مطمئنا ساكنا متمتعا بالهدوء والاستقرار، ومن ثم فأهله آمنون ومطمئنون، لأنهم يحيون فيه. ولو قيل آمنا أهله لم يكن بهذه المثابة، إذ لايدل على تتمتع الحرم بالأمن.

---

(١) الحاقة: ٢١، والقارعة : ٧.

(٢) الطارق:٦.

(٣) القصص: ٥٧.

ومن ذلك قول النابغة :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع

فإسناد «ناقع» إلى ضمير السم على سبيل المجاز، لأن السم لايفعل النقع، ولكن ينقع، فالأصل أنه منقوع لاناقع. وفى التعبير مبالغة فى وصف السم بالتركيز وشدة التأثير، بجعله فاعلا للنقع، وقائما به، وهذا أقوى مما لو نقعه أحد. ومن هذا قولهم: منزل عامر، وحجرة مضيئة، وأسلوب حكيم، والأصل: منزل معمور، وحجرة مضاءة، وأسلوب محكم، ولاتخفى عليك بلاغة ذلك عند التأمل.

٣- **المصدرية:** وذلك فيما بنى للفاعل وأسند للمصدر مجازا كقولهم: شعر شاعر، فقد أسند «شاعر» إلى ضمير المصدر «شعر» وهذا إسناد مجازى، لأن الشعر ليس فاعلا له في الحقيقة، والأصل أن يسند إلى فاعله الحقيقى وهو صاحب الشعر فيقال: شعر شاعر صاحبه. والجملة تبالغ فى وصف الشعر بالجودة وقوة التأثير، بتخيل أنه الشاعر الذي يصدر عنه الشعر. وقد اعترض على هذا المثال بأنه مما يحتمل أن يكون لعلاقة المفعولية، باعتبار أن المراد بالشعر هو الكلام المشعور به، فهو بمعنى المفعول، لابمعنى المصدر الذى هو نفس الشعر[1]. ومن هذا مبالغتهم فى وصف الغناء بالحسن فيقولون: غنى الغناء، فيسندون الفعل إلي الغناء مجازا وبهذا يجعلون الغناء هو الذى يغنى إشارة إلى تمام حسنه، وكمال طربه، بينما الفاعل الحقيقى هو المغنى. وعلى هذا جاء قول أبى فراس:

---

(١) انظر شروح التلخيص: ١/٢٣٦، ٢٣٩.

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقد أسند الفعل «جد» إلى المصدر «جدهم» وهو ليس فاعلا على الحقيقة، فالفاعل هم القوم والأصل: جد القوم جدا. وفى هذا مبالغة فى بيان قوة اجتهادهم. وشدة جدهم فى الأمر. حيث جعل الجد نفسه هو الجاد والمجتهد. ومن هذا قوله تعالى(**فإذا عزم الأمر**) [١]، والمعنى : إذا جد الأمر بفرض القتال، وجواب الشرط محذوف تقديره: كرهوا ذلك وتقاعسوا [٢]. وفى الجملة القرآنية مجاز عقلى علاقته المصدرية، حيث أسند العزم للأمر، وهو فى الحقيقة لأصحابه، وفى هذا تصوير للأمر بصورة العاقل العازم مما يدل على تمام العزم، وكمال الجد والاجتهاد فى دخول القتال.

ومن هذا قوله تعالى(**صفراء فاقع لونها**) [٣] ففى إسناد الفقوع إلى اللون مجاز عقلى علاقته المصدرية، والأصل: صفراء فاقعة، فأسند إلى اللون، قال الزمخشرى : فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأى فائدة فى ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهى الصفرة، فكأنه قيل: شديدة الصفرة صفرتها، فهو من قولك: جد جده، وجنونك مجنون [٤].

---

(١) محمد: ٢١.

(٢) معانى القرآن: ٦/ ٤٨١. النحاس.

(٣) البقرة : ٦٩.

(٤) الكشاف: ١/ ٢٨٦.

٤- الزمانية : وذلك فيما بنى للفاعل وأسند للزمان مجازا كقولهم: نهار العابد صائم، وليله قائم. ففى إسناد «صائم» إلى ضمير النهار، و«قائم» إلى ضمير الليل مجاز عقلى علاقته الزمانية، فالنهار لايصوم والليل لايقوم، وإنما الصائم والقائم هو العابد، والنهار والليل زمان للصيام والقيام. وفى التعبير مبالغة فى وصف العابد بالصيام والقيام، لأنه إذا كان يومه صائما وليله قائما فهو بالأحرى صائم قائم، لأنهما زمان وجوده وهو مرتبط بهما فى حركته وسكونه، وغدوه ورواحه، بجانب مافى ذلك من تصوير لهما بصورة العاقل الصائم القائم، وكأنهما يشاركانه هذا الأعمال الفاضلة، وبذلك تكون كل حياته عبادة وتقوى.

ومن ذلك قوله تعالى (**يوما يجعل الولدان شيبا**)[1] وقوله تعالى (**فذلك يومئذ يوم عسير**)[2] فإسناد الجعل والعسر إلى ضمير اليوم وهو غير فاعل لهما إسناد مجازى علاقته الزمانية، وفيه تهويل ليوم القيامة، وتفظيع لشأنه ترهيبا وتخويفا منه ليستعد الناس له بالإيمان والتقوى.

ومن هذا قول طرفة :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول البحترى :

وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما

---

(١) المزمل:١٧.

(٢) المدثر:٩.

وقول الرندى من قصيدة باكية يرثى فيها دولة الأندلس:

هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

فإسناد الإبداء إلى الأيام، والتنبيه إلى النيروز، والسرور إلى الزمن والإساءة إلى الأزمان، مجازات عقلية علاقتها الزمانية، فهذه الأشياء غير فاعلة، وإنما هى زمان لوقوع الفعل، وفى إسناد الأفعال إليها بيان لأهميتها فى احتوائها لهذه الأحداث، وإشارة إلى أنها عنصر هام فيها، بجانب مافيه من تخييل يخرجها من حيز الظرفية والزمانية إلى حيز الفاعلية المؤثرة، وللمتنبى قصيدة فى شكوى الزمان منها قوله :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منـ ـه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـ ـه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الد هر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا

إنها قصيدة قالها بمصر ولم ينشدها كافور الإخشيدى[1]. ولقد كانت إقامته فى كنفه على غير هوى منه، خاصة بعدما لم ينل مراده، ومن هنا علت نبرات الشكوى فى شعره فى هذه الفترة، وفى هذه القصيدة يشكو الزمان مظهراً عواره، مبديا أضراره، مصورا له بصورة الفاعل القادر، فهو نادرا مايسر بعض الناس، ولياليه ربما تحس الصنيع، ولكن سرعان ما تكدر هذا الإحسان، وهو ينبت القنوات وهى أعواد الرماح، ليركب الناس عليها الأسنة. وفى إسناد السرور والإحسان والتكدير والإنبات إلى الزمان ولياليه

---

(١) انظر شرح ديوان المتنبى: ٤/ ٣٧٠.

مجاز عقلى علاقته الزمانية، لأن الزمان ولياليه لايفعلان ذلك على الحقيقة، وهذا يعكس عمق إحساسه وشعوره بمرارة الزمان وما اعتراه فيه من خطوب جسام، كدرت صفو حياته، وجعلته لايهنأ بالمقام فى بلد من البلدان.

٥- **المكانية:** وتكون فيما بنى للفاعل وأسند للمكان مجازا، كقولهم: طريق سائر، ونهر جار، وحديقة غناء، ومشرب عذب. فأسند «سائر» إلى ضمير الطريق، و«جار» إلى ضمير النهر، و«غناء» إلى ضمير الحديقة، و«عذب» إلى ضمير المشرب، وفى هذا مجاز عقلى علاقته المكانية، لأن المسند إليه فيها ليس فاعلا للمسند على وجه الحقيقة، والأصل أن يقال: طريق سائر الماشى فيه، ونهرجار ماؤه، وحديقة غناء طيورها، ومشرب عذب ماؤه. وفى هذا الإسناد المجازى إسباغ الحيوية هذه الجمادات التى لاتفعل شيئا، بجعلها فاعلة، مما يشير إلى تميزها على ماعداها، وأفضليتها على ماسواها، كما أن فيه مبالغة فى وصف الفاعل الحقيقى بالفعل، لأن الطريق إذا كان سائرا فالماشون فيه سائرون من باب أولى، والنهر- وهو الشق الذى يجرى فيه الماء- إذا وصف بالجريان فالماء الذى فيه يكون أكثر جريانا وهكذا.

ونجد المجاز العقلى لملابسة المكانية فى قوله تعالى(**جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار**)[1] حيث أسند الجريان إلى الأنهار وهى ليست فاعلة له، وإنما يجري ماء الأنهار. والتعبير القرآنى مشعر بكثرة الماء وقوة جريانه، حتى ليرى الناظر كأن الأنهار التى تحمل الماء هى التى تجرى. كما أنه يشير إلى غرابة الصورة الأخروية ومخالفتها لما يجرى فى الدنيا،

---

(١) البينة: ٨.

فقد جرت العادة فى الدنيا أن الماء هو الذى يجرى، ولكن التعبير القرآنى يجعل أنهار الجنة هى التى تجرى، وهذا يتناسب مع نعيم الجنة الذى لم تره عين، ولاسمعت به أذن، ولاخطر على قلب بشر.

كما نلمسه فى قوله تعالى(**وأخرجت الأرض أثقالها**)[١] إذ أسند الإخراج إلى الأرض، وهى ليست فاعلة له، ولا تقدر على أن تخرج الكامن فى بطنها من الأثقال، ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيها وما أودع جوفها[٢]، والتعبير القرآنى موح بقوة زلزلة الأرض وشدة رجها، حتى إنها لتلفظ ما فى جوفها، وتطرحه علي ظهرها، مما يدل على الهول الشديد يوم الساعة، كما يشعر بيسر أمر البعث وأنه لايعجز القدرة الإلهية، فما هو إلا أن تخرج الأرض ما أودع فى باطنها بأمر الله تعالى.

ومنه قول الشاعر :

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

والأبطح: المسيل الواسع الذى فيه دقاق الحصى. وفى إسناد السيلان إلى الأبطح مجاز عقلى علاقته المكانية لأن الأبطح مكان السيلان وليس فاعلا له. وهذا يشير إلى غزارة الدماء التى سالت فملأت الأبطح، حتى أصبح يرى كأنه سائلا.

---

(١) الزلزلة : ٢.

(٢) أسرار البلاغة : ٣٣٥.

٦- **السببية** : وذلك فيما بنى للفاعل وأسند للسبب مجازا. كقولهم: شفى الطبيب المريض، وبفعل المال ما تعجز عنه القوة، وبنى الوزير المدرسة، فأسندوا الشفاء إلى الطبيب، والفعل إلى المال، والبناء إلى الوزير، وهم غير فاعلين لذلك على الحقيقة، وإنما هم سبب له، ففى العبارات المذكورة مجاز عقلى علاقته السببية. ويشبهها فى ذلك كل ما أسند فيه الفعل إلى سببه وهو كثير فى الكلام وشائع على الألسنة، وفى الإسناد إلى السبب إشعار بقوته وأهميته فى إحداث الفعل، حتى صح أن يسند إليه بدلا من فاعله الحقيقى.

ومنه قوله تعالى(**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا**) (١) حيث أسندت زيادة الإيمان إلى الآيات، وهى لا توجد ذلك على الحقيقة ولكنها سبب فيه. وقوله تعالى (**يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم**) (٢) إذ أسند التذبيح والاستحياء إلى ضمير فرعون، وهذا مجاز عقلى علاقته السببية، لأن فرعون لم يفعل ذلك بنفسه ولكنه كان آمراً به وسببا فيه. وقوله تعالى(**فأخرجهما مما كانا فيه**) (٣) فقد أسند الإخراج الذى هو فعل الله تعالى إلى إبليس، لأنه كان سببا في ذلك حيث وسوس لهما بالأكل من الشجرة ومخالفة أمر الله تعالى، مما ترتب عليه إخراجهما من الجنة. والسر البلاغى فى كل ذلك الدلالة على قوة السبب وعظم أثره فى إحداث الفعل والإعانة عليه، حتى غدا من شدة اتصاله به كالفاعل له.

---

(١) الأنفال: ٢.

(٢) القصص: ٤.

(٣) البقرة : ٣٦.

ومن هذا قول الشاعر :

إنا لمن معشر أفنى أوائلهـــم قيل الكماة ألا أين المحامونا

فقد أسند إفناء أوائلهم إلى قول الكماة: أين المحامون؟ وهذا القول ليس فاعلا حقيقيا لإفنائهم: بل هو سبب لدخولهم المعارك، ومن ثم تعرضوا للفناء، وفى التعبير إشارة إلى أن أكبر عامل فى إفنائهم هو إجابتهم داعى المناصرة، ونهضتهم للدفاع عن المستغيث بهم، ومن هنا صح أن يكون هذا فاعلا لإفنائهم.

ومن هذا قول المتنبى :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

فقد أسند الأفعال «يخترم» و«يشيب» و«يهرم» إلى الهم، وهو مجرد سبب فى ذلك وليس فاعلا له على الحقيقة. وهذا يبين الأثر المدمر الذى يخلفه الهم فى المرء، من هزال يصيب جسمه، وشيب يعلوه قبل أوانه، وهرم يظهر عليه فى غضون شبابه، ولكون الهم ذا أثر بين فى هذه الأفعال، فقد اعتبره الشاعر فاعلا لها، وأسندها إليه على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية. ومنه قوله :

طوال الردينيات يقصفها دمى
ويبض السريجيات يقطعها لحمى
برتنى السرى برى المدى فردننى
أخف على المركوب من نفسى جرمى

فقد أسند المتنبى أربعة أفعال إلى غير فاعليها، حيث جعل دمه يقصف الرماح الردينية، ولحمه يقطع السيوف السريجية، والسرى أهزلته،

وردته أخف على مركوبه من نفسه الذي يخرج من فمه. وكل هذا على سبيل المجاز العقلى للملابسة بالسببية. وفيه إشادة بالسبب وإظهار قوة أثره بجعله فاعلا مع إغفال الفاعل الحقيقى.

ومن شواهد هذه العلاقة عند الخطيب قول عوف بن الأحوص:

فلاتسألينى وأسألى عن خليقتى
إذا رد عافى القدر من يستعيرها (١)

وعافى القدر: بقايا المرق الذى يتأخر فى القدر، ويكون سببا فى رد المستعير لها وقد أسند الشاعر الفعل «رد» إلى عافى القدر، وجعله فاعلا للفعل، وهو ليس كذلك، فالذى يرد القدر هو المعير لها، وعافيها إنما يكون سببا فى ذلك، وعلى هذا فالإسناد مجازى علاقته السببية.

ويدخل فى هذا ما أسند فيه الفعل إلى السبب الغائى كما فى قوله تعالى (يوم يقوم الحساب) (٢) فإن القيام فى الحقيقة لأهل الحساب، ولكن لما كان قيامهم لأجل الحساب، كان الحساب علة غائية للقيام، فأسند القيام إليه على سبيل المجاز العقلى (٣).

وقد اقتصر الخطيب فى حديثه عن ملابسات المجاز العقلى على هذه العلاقات الست التى شرحناها، ورددها من جاء بعده دون زيادة، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول: إنه لم يصرح بحصر الملابسات فى هذه الست المذكورة، بل قال إن للفعل ملابسات شتى، وذكرها، وقوله «شتى» يشير إلى كثرة الملابسات فى نظره، وإن كان لم يعرض إلا للست السابقة.

---

(١) إبراهيم : ٤١.

(٢) بغية الإيضاح : ٩٦/١.

(٣) انظر مواهب الفتاح: ٢٣٩/١.

وهذه الملابسات ذكرها الزمخشرى فى تفسيره لقوله تعالى **(ختم الله على قلوبهم)** [١]، فقال: وللفعل ملابسات شتى، يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والمسبب له- أى السبب- وقد أخذها الخطيب على ماهى عليه دون تغيير أو إضافة، علما بأن الزمخشرى أشار إلى بعض الملابسات الأخرى فى ثنايا تفسيره ومنها [٢]:

١- إسناد الفعل إلى الكل وهو للبعض، ففى قوله تعالى **(ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا)** [٣] يقول : يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره، وأن يراد بعض الجنس، وهم الكفرة، فإن قلت: لم جاز إرادة الأناس كلهم، كلهم غير قائلين ذلك؟ قلت لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم صح إسناده إلى جميعهم، كما يقولون: بنو فلان قتلوا فلانا، وإنما القاتل رجل منهم. قال الفرزدق:

فسيف بنى عبس وقد ضربوا بـــه
نبا بيدى ورقاء عن رأس غارب

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس مع قوله : نبا بيدى ورقاء [٤].

٢- إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها. ففى قوله تعالى **(فإنه آثم قلبه)** [٥] يقول : فإن قلت: هلا اقتصر على قوله آثم، ومـــا

---

(١) البقرة :٧.

(٢) انظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى : ٤٤٨.

(٣) مريم : ٦٦.

(٤) الكشاف : ٢/٥١٧.

(٥) البقرة : ٢٨٣.

فائدة ذكر القلب، والجملة هى الآثمة لا القلب وحده؟ قلت: كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولايتكلم بها، فلما كان إثما مقترفا بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ، ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عينى، ومما سمعته أذنى، ومما عرفه قلبى[١]...

٣- إسناد الفعل إلى ماله مزيد اختصاص بالفاعل الحقيقى، ففي قوله تعالى ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾[٢] يقول : فإن قلت: لم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؟ قلت : لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذى ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لاهم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم، وأنهم لايتميزون عنه[٣].

والذى نراه أن الملابسات ينبغى أن تذكر على سبيل التمثيل لا الحصر، لأنه يكتفى فى الملابسة بأى لون من ألوان الارتباط، ومن العسير حصر ذلك، وهذا مسلك الإمام عبد القاهر فى بيانها، حيث أطلقها عندما عرف المجاز العقلى بقوله : كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول[٤]. وعلى نهجه فى عدم تحديد الملابسات مضى السكاكى فى مفتاحه[٥].

---

(١) الكشاف : ٤٠٦/٢.

(٢) الحجر: ٦٠.

(٣) الكشاف : ٣٩٤/٢.

(٤) أسرار البلاغة : ٣٣٣.

(٥) انظر مفتاح العلوم: ٣٩٣ ومابعدها.

أقسام المجاز العقلى باعتبار طرفيه:

بين الشيخ عبد القاهرأن المجاز الحكمى يقع فى الإثبات، وأن المجاز اللغوى يقع فى المثبت، وأن الكلام قد ينتظمهما معا أو ينتظم أحدهما دون الآخر، وفصل الحديث فى ذلك مؤيدا بالأمثلة المختلفة[١]. وبناء علي هذا نظر البلاغيون إلى مجئ المجاز العقلى مقرونا بالمجاز اللغوى فى أحد طرفى الإسناد المسند والمسند إليه أو فيهما معا، أو غير مقرون به، وقسموا المجاز العقلى من هذه الزاوية أربعة أقسام :

١- **ما طرفاه حقيقتان:** كقولنا: شفى الطبيب المريض، فالمسند وهو الشفاء حقيقة، والمسند إليه وهو الطبيب حقيقة كذلك، ولا مجاز فى اللفظين، وإنما المجاز فى إسناد الشفاء إلى الطبيب وهو فعل الله تعالى. ومن هذا قوله تعالى **(وأنبتت من كل زوج بهيج)**[١] أسند الإنبات إلى الأرض، وكل منهما حقيقة لغوية، والمجاز فى إسناد الإنبات إلى الأرض باعتبارها مكانا له، وهذا يسبغ عليها الحياة، ويصورها بصورة القادر، إبراز الأثر فى هذا الفعل العجيب.

ومن هذا قوله تعالى(**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتواوهم كافرون)**[٣] إذ أسندت الزيادة إلى الآيات فى مواطن ثلاثة على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية، فالآيات سبب فى

---

(١) انظر أسرار البلاغة : ٣٢٠ ومابعدها.

(٢) الحج :٥.

(٣) التوبة: ١٣٤، ١٣٥.

زيادة الإيمان لدى المؤمنين، بما فيها من دلائل ومعارف تقوى صلتهم بالله تعالى، وسبب فى زيادة رجس المنافقين، حيث يواجهونها بالإصرار على الضلال، والتشبث بالنفاق والإلحاد. وواضح أن الزيادة هنا حقيقة لامجاز فيها، كما أن الآيات كذلك، والمجاز فى الإسناد. وفى هذا دلالة على قوة السبب وأهميته فى تحقيق الفعل، بإنزاله منزلة الفاعل الحقيقى، وتصويره بصورة المؤثر القوى.

ومن هذا القبيل قول جرير:

لقد لمتنى يا أم غيلان فى السرى
ونمت ومالىل المطى بنائم

وقول ابن براق :

تقول سليمى لاتعرض لعلفة وليلك عن ليل الصعاليك نائم

فإسناد «نائم» إلى ضمير الليل فى كل من البيتين مجاز عقلى علاقته الزمانية، والليل والنوم حقيقتان لامجاز فيهما.

٢- **ما طرفاه مجازان.** كقولك : أشعلت نار الغضب فتنة عمياء، فإسناد الإشعال إلى النار مجاز عقلى علاقته السببية، و الإشعال مجاز عن الإيجاد والنشر، ونار الغضب مجاز عن هياجه وشدته، وبذلك اجتمع المجاز العقلى فى الإسناد مع المجاز اللغوى فى المسند والمسند إليه، وتقول: مزقت سهام الحسد أواصر الأخوة، فإسناد التمزيق إلى سهام الحسد مجاز عقلى علاقته السببية، والتمزيق مجاز عن الإنهاء والإزالة، وسهام الحسد مجاز عن قوته النافذة، فاجتمع المجاز العقلى فى الإسناد مع المجاز اللغوى فى طرفى الإسناد.

ومن هذا قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم)[1] أسند الربح المنفى إلى التجارة وهو فى الحقيقة لأصحابها أى فما ربحوا فى تجارتهم، وفى هذا مجاز عقلى علاقته السببية. والربح: تحصيل الزيادة على رأس المال، وهو هنا مجاز عن إخفاق المنافقين فى سعيهم وقصدهم، والتجارة: التصرف فى رأس المال طلبا للربح، وهو هنا مجاز عن الضلال الذى اختاره المنافقون ويروجون له، ففى الإسناد مجاز عقلى وفى طرفى الإسناد مجاز لغوى كما رأيت.

٣- **ان يكون المسند حقيقة والمسند إليه مجازاً.** كقولك: أفنتهم أيدى المنون، فالإفناء حقيقة، وأيدى المنون استعارة مكنية، وإسناد الإفناء إلى أيدى المنون مجاز عقلى علاقته السببية. وتقول: أضعفتنى سهام الدهر، وأوهنتنى معاول الزمان، فأضعفتنى وأوهنتنى حقيقتان، وسهام الدهر ومعاول الزمان مجازان من قبيل الاستعارة المكنية، وفى الإسناد إليهما مجاز عقلى علاقته السببية، ومن هذا قول الفرزدق:

سقتها خروق فى المسامع لم تكن
علاطا ولامخبوطة فى الملاغم

والعلاط: وسم فى العنق، والخباط: وسم فى الوجه. والفرزدق يفخر بعلو ذكر قومه وشهرتهم، لذا فإن إبلهم ترد الماء فى الصحراء فلايمنعها أحد مع أنها ليست موسومة بعلامة، وذلك لشهرة قومه وعلو ذكرهم الذى يملأ الأسماع، وكأن هذا الذكر الذى ملأ أسماع الناس وخرقها هو الذى سقاها.

---

(١) البقرة: ١٦.

قال المبرد: يقول علم أرباب الماء لمن هى، فسقاها ماسمعوه من ذكر أصحابها لعزهم ومنعتهم، ولم تحتج أن تكون بها سمة[1].

وقد أسند الفرزدق السقى إلى الخروق وهو مجاز عقلى علاقته السببية، والسقى حقيقة، وخروق المسامع مجاز عن الذكر والشهرة.

٤- **ان يكون المسند مجازا والمسند إليه حقيقة.** كقولك: أحيا الربيع الأرض، فإسناد الإحياء إلى الربيع مجاز عقلى علاقته الزمانية، والإحياء مجاز عن اخضرار الأرض، والربيع حقيقة. ومنه قولك لصديقك: قتلنى هجرك، وأحيانى وصلك. ففى إسناد القتل إلى الهجر، والإحياء إلى الوصل مجاز عقلى علاقته السببية، والقتل والإحياء مجازان، والهجر والوصل حقيقتان.

ومن هذا ما وقع به الرشيد فى قصة البرامكة: أنبتتهم الطاعة، وحصدتهم المعصية، فالانبات والحصد مجازان والطاعة والمعصية حقيقتان، وفى إسناد الإنبات إلى الطاعة والحصد إلى المعصية مجاز عقلى علاقته السببية، وهذا المجاز يظهر قوة السبب، ويجعله فاعلا للفعلين.

ومن هذا قول المتنبى :

وتحيى له المال الصوارم والقنا ويقتل مايحيى التبسم والجدا

فقد جعل الزيادة والوفور حياة للمال، وتفريقه فى العطاء قتلاله على سبيل الاستعارة، ثم أثبت الإحياء فعلا للصوارم والقنا، والقتل فعلا للتبسم والعطاء على سبيل المجاز العقلى. ونحوه قولهم : أهلك الناس الدينار والدرهم، حيث جعلت الفتنة إهلاكا على سبيل الاستعارة، ثم أثبت

---

(١) الكامل: ١/٥٥.

الإهلاك فعلا للدينار والدرهم على سبيل المجاز العقلى[١]. وفى كل ذلك تقوية للسبب واعتباره فاعلا.

ومن هذا قوله تعالى (رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا)[٢] حيث أسند الاشتعال إلى الرأس، وهو مجاز عقلى علاقته المكانية، والرأس حقيقة، أما الاشتعال فهو مجاز عن ظهور الشيب وعمومه الرأس.

الخلاف فى استلزامه الحقيقة :

اختلف البلاغيون حول استلزام المجاز العقلى الحقيقة، ومنشأ هذا حديث الشيخ عبد القاهر فى هذه المسألة، إذ قال: واعلم أنه ليس بواجب فى هذا أن يكون للفعل فاعل فى التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة، مثل أنك تقول فى «ربحت تجارتهم» ربحوا فى تجارتهم، وفى «يحمى نساءنا ضرب»[٣] نحمى نساءنا بضرب، فإن ذلك لايتأتى فى كل شئ. ألا ترى أنه لايمكنك أن تثبت للفعل فى قولك: أقدمنى بلدك حق لى على إنسان، فاعلا سوى الحق، وكذلك لاتستطيع فى قوله :

وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل

وقوله :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

---

(١) انظر أسرار البلاغة : ٣٢١، وبغية الإيضاح : ٧٤/١.

(٢) مريم : ٤.

(٣) مأخوذ من قول الفرزدق:

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أرعل

أن تزعم أن «لصيرنى» فاعلا قد نقل عنه الفعل فجعل «للهوى» كما فعل ذلك فى «ربحت تجارتهم» و«يحمى نساءنا ضرب» ولاتستطيع كذلك أن تقدر «ليزيد» فى قوله «يزيدك وجهه» فاعلا غير «الوجه». فكلام الشيخ يفهم منه أن بعض أساليب المجاز العقلى يمكن فيها تقدير الفاعل الحقيقى وتوجيه الإسناد إليه دون عنت وبذلك يصير الإسناد حقيقة. وبعضها الآخر لايمكن تقدير ذلك فيه.

واعترض الفخر الرازى على كلام عبد القاهر بحجة أن الفعل يستحيل وجوده إلا من الفاعل، فالفعل المسند إلى شئ إما أن يسند إلى ماهو مستند فى ذاته إليه، فيكون الإسناد حقيقة، وإذا لم يسند إلى ذلك الشئ فلابد من شئ آخر يكون هو مستندا لذاته إليه، وإلا لزم حصول الفعل لاعن فاعل، وهو محال[1].

وبهذا وجه الرازى الكلام وجهة كلامية، وكأنه يرى أن كلام الشيخ مؤد إلى القول بوجود فعل دون فاعل، على أن المتأمل فيه لا يجد مايدل على ذلك، بل يراه واضحا فى بيان أن الفاعل الحقيقى يمكن تقديره فى بعض أساليب المجاز العقلى والاستعمال جار بذلك، ولايمكن تقديره فى بعض الأساليب لأن الاستعمال لم يجر به، ولو قدر الفاعل الحقيقى لكانت خارجة عن كلام الناس، وهذا لايعنى عدم وجود فاعل حقيقى لها.

أما السكاكى فقد فهم أن كلام الشيخ يشير إلى وجود مجاز بدون حقيقة يرجع إليها، ومن ثم رد على كلامه فقال: ولايختلجن فى ذهنك بعد أن اتضح لك كون المجاز فرع أصل، تحقق مجاز أيا كان بدون حقيقة يكون متعديا عنها، لامتناع تحقق فرع من غير أصل، فلاتجوز فى نحو: سرتنى

---

(١) نهاية الإيجاز: ١٧٨.

رؤيتك، ونحو: أقدمنى بلدك حق لى على فلان ونحو: وصيرنى هوالك.. نحو: يزيدك وجهه حسنا.. ألا يكون لكل من هذه الأفعال فاعل فى التقدير، وإذا أنت أسندت الفعل إليه وجدت الحكم واقعا فى مكانه الأصلى عند العقل، ولكن حكم العقل فيها، فأيما شئ ارتضى بصحة استنادها فهو ذاك.. فيكون أصل الكلام فيماسبق: سرنى الله وقت رؤيتك، وأقدمنى نفسى لأجل حق لى على فلان، وصيرنى الله..، ويزيدك الله حسنا فى وجهه... [1] وعلى نهج السكاكى مضى الخطيب، وصرح بوجوب وجود فاعل حقيقى قائلا: واعلم أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى واجب أن يكون له فاعل فى التقدير إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة، وذلك قد يكون ظاهرا كما فى قوله تعالى(**فما ربحت تجارتهم**) [2] أى فما ربحوا فى تجارتهم، وقد يكون خفيا لايظهر إلا بعد نظر وتأمل كما فى قولك: سرتنى رؤيتك أى سرنى الله وقت رؤيتك [3].

والواضح أن كلام الشيخ عبد القاهر لايقصد به وجود فعل دون فاعل، ولا عدم وجود فاعل حقيقى فى الإسناد المجازى، بل يراد به أن الفاعل الحقيقى قد يجري الاستعمال بالإسناد إليه كقولهم فى شفى الطبيب المريض، شفى الله المريض، وقد لايجرى الاستعمال بإظهاره والإسناد إليه حتى كأن الإسناد المجازى هو الحقيقة بعينها كما فى قولهم : سرتنى رؤيتك، والأول هو ماعده الخطيب ظاهرا، والثانى ماعده خفيا لايظهر إلا بعد تأمل.

---

(١) مفتاح العلوم: ٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) البقرة : ١٦.

(٣) بغية الإيضاح : ١/٧٨، ٧٩.

وقد بين ابن يعقوب أن مراد الشيخ ليس وجود أفعال لايتصف بها شئ على وجه الحقيقة ولايمكن فرض موصوف لها أصلا، بل المراد أن نحو: سرتنى رؤيتك، وأقدمنى بلدك حق لى على فلان، ويزيدك وجهه حسنا، لايقصد فى الاستعمال العرفى فيها فاعل الإقدام ولافاعل السرور المتعدى ولا فاعل الزيادة المتعدية، ولذلك لم يوجد فى ذلك الاستعمال إسنادها لما يحق أن يتصف بها، لأنها لكونها اعتبارية ألغى عرفا استعمالها لموصوفها الذى تعتبر به، ولو صح أن لها موصوفا، لأن الغرض من ذلك التركيب ما وجد خارجا من القدوم والسرور اللازمين والزيادة اللازمة، فصار هذا التركيب فى إسناده كالمجاز الذى لم تستعمل له حقيقة، ولم يرد الشيخ أن هذه الأفعال الاعتبارية لاموصوف لها فى نفس الأمر يكون الإسناد إليه حقيقة، بل المراد أنه لم يستعمل لعدم تعلق الغرض به[1].

وذكر الدسوقى أن مراد الشيخ ليس نفى الفاعل رأسا بل مراده نفى وجوب فاعل أسند إليه الفعل قبل إسناده إلى المجازى[2]. وبهذا يظهر لنا أن الحق هو ما ذكره الشيخ عبد القاهر، وأن ما ذكره المخالفون له تكلف بعيد.

شيوعه ودقته :

المجاز العقلى من الأساليب المشهورة فى البيان العربى شعره ونثره ولايقتصر ورود أساليبه على الخبر لمثبت بل يأتى فى الخبر المنفى، كما فى قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم)[3] وقوله تعالى(لاعاصم اليوم من

---

(١) مواهب الفتاح: ١/٢٦١-٢٦٣.

(٢) حاشية الدسوقى: ١/٢٦١-٢٦٣.

(٣) البقرة : ١٦.

من أمر الله إلا من رحم)[١] أى لامعصوم، وقد أسند اسم الفاعل إلى المفعول به الحقيقى وفى هذا مجاز عقلى علاقته المفعولية.

ومن هذا قول الشاعر :

ماكل مايتمنى المرء يدركـــه تجرى الرياح بمالاتشتهى السفن

حيث أسند فعل الاستشهاء المنفى إلى السفن وهو لمن فيها فى الأصل ففى الإسناد مجاز عقلى علاقته المكانية.

ومنه قول جرير السابق :

قد لمتنى يا أم غيلان فى السرى ونمت ومالیل المطى بنائـــم

ولايختص المجاز العقلى بالأساليب الخبرية بل يرد فى الأساليب الإنشائية ومن ذلك قوله تعالى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا)[٢] وقوله تعالى «فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا)[٣] فقد أسند الأمر بالبناء والإيقاد إلى هامان وهو فى الأصل للعملة، ففى الإسناد مجاز عقلى علاقته السببية. ومنه قوله تعالى (فلايخرجنكما من الجنة فتشقى)[٤] فأسند الإخراج من الجنة إلى إبليس، وهذا مجاز عقلى علاقته السببية لأن إبليس سبب فى ذلك. ومنه قوله تعالى (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا)[٥] فالاستفهام التهكمى من الكافرين ليس المراد منه أن الصلاة

---

(١) هود: ٤٣.

(٢) غافر: ١٣٦.

(٣) القصص : ٣٨.

(٤) طه : ١١٧.

(٥) هود: ٨٧.

هى الآمرة أم لا، بل المراد: أيأمرك ربك فى صلاتك؟ أى فى حال تلبسك بها: فهو من الإسناد الإنشائى المجازى، لأن حقه أن يسند للفاعل فحول إلى المتعلق بالحروف مجازاً[١] ومنه قولك: ليت العيشة ترضى، والنهار يصوم، وقولك : ليجد جدك، وليصم نهارك، وقولك: لاينم ليلك، ولايصم نهارك. فالإسناد فى كل ذلك مجازى والأساليب إنشائية كما ترى.

والقرآن الكريم كتاب الله المعجز يحوى كثيرا من صور المجاز العقلى الرائعة، وألوانه البديعة، وقد نبه الشيخ عبد القاهر علي هذا، وتبعه فيه البلاغيون[٢].

وقد ذكرنا فيما سبق كثيرا من أمثلته القرآنية، ومنها غير ما تقدم قوله تعالى (**حتى تضع الحرب أوزارها**)[٣] أى آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارهـــا	**رماحا طوالا وخيلا ذكـــورا**
ومن نسج داود موضونـــة	**تساق إلى الحرب عيرا فعيرا**

والأوزار استعارة تصريحية مبنية على تشبيه آلات الحرب وأثقالها بالأوزار. وإيثار التعبير بها لما فيه من إشارة إلى آثار الحرب المدمرة وشرورها القاتلة وعواقبها الوخيمة. وفى إسناد وضع الأوزار إلى الحرب مجاز عقلى علاقته السببية، فالحرب سبب لحمل السلاح والعقاد، والأصل حتى يضع المحاربون آلات الحرب وتنتهى المعركة، وفى الإسناد المجازى

---

(١) انظر مواهب الفتاح: ١/٢٥٥.

(٢) انظر أسرار البلاغة : ٣٣٥. ومفتاح العلوم: ٣٩٧، وبغية الإيضاح: ١/٧٥.

(٣) محمد : ٤.

إشعار بأصالة الحرب فى إعداد الآلات وتدبير السلاح، وحمل ذلك لساحة الحرب، وفيه أيضا تصوير للحرب بصورة القادر المتصرف الذى يحمل السلاح ويضعه متى شاء.

ومن المجاز العقلى إسناد الإرداء بمعنى الإهلاك إلى الظن فى قوله تعالى (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) [١] والظن المشار إليه إشارة تمييز وتحقير هو ماجاء فى الآية السابقة (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) وهذا الظن كان سببا فى إهلاكهم، وفى الإسناد إلى السبب إظهار لقوة أثره، وتصوير له بصورة الفاعل الحقيقى فى إهلاكهم، وهذا يبين الضرر الخطير الذى نالهم بسببه. والإرداء مستعار للإيقاع فى سوء الحالة، بحيث أصارهم مثل الأموات [٢]. ومنه مافى قوله تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) [٣] حيث أسند الإحلال الذى هو فعل الله تعالى إلى أكابرهم لأن سببه كفرهم. وسبب كفرهم أمر أكابرهم إياهم بالكفر [٤] وفى إسناد الفعل إلى السبب إشارة إلى أن الفاعل الحقيقى لخسران القوم وهلاكهم، أكابرهم الذى هيئوا لهم سبيل الكفر ولولاهم ماقوع القوم فى هذا المصير السئ.

ومنه إسناد الإنبات إلى الأرض فى قوله تعالى (وأنبتت من كل زوج بهيج) [٥] إذ الإنبات فعل الله تعالى، والأرض مكان له، ففى إسناد

---

(١) فصلت: ٢٣.

(٢) التحرير والتنوير : ٢٧٢/٢٤.

(٣) إبراهيم : ٢٨.

(٤) بغية الإيضاح : ٧٥/١.

(٥) الحج: ٥.

الإنبات إليها مجاز عقلى علاقته المكانية، وفيه إشارة إلى أهمية الأرض فى هذا الفعل، ولفت للإنسان إلى مافيها من آيات وعظات. وله أثر لفظى حيث حقق التناسب والتشاكل فى سياق العبارة بأن جاءت على نسق واحد أسندت فيه الأفعال إلى الأرض (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج).

والمجاز العقلى من الأساليب التى تدور على ألسنة العامة والخاصة، فكثيرا ماتسمع من يقول: هذه المدرسة بناها المحافظ، وهذا المشروع أقامه الوزير، وتسمع من يقول: قتلهم الجوع، وأعماهم الكبر، ويقول الزراع: أخرجت الأرض محصولا وفيرا، وأعطى الفدان عشرة قناطير، ويقول التجار: بيعة رابحة، وتجارة خاسرة، ويقول المغرمون: الورد يهيج الأشواق، والغناء يضرم نار الهوى، ودموع حزينة، وذكريات أليمة. وهكذا تراه أسلوبا جاريا على الألسنة، مستعملا فى أحاديث الناس، جاريا مجرى الحقيقة.

وربما أوهم هذا أنه أسلوب سهل ميسور، وليس الأمر كذلك، بل هو أسلوب قد يدق ويلطف حتى يمتنع على الفصحاء، وعلى هذا فمنه ماهو عامى يجرى على ألسنة الناس، ومنه ما هو خاصى لايكمل له كل أحد، ولا يحسنه إلا من أوتى حظا وافيا من البلاغة. وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى هذا فقال: ولايغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول: أتى بى الشوق إلى لقائك، وسار بى الحنين إلى رؤيتك، وأقدمنى بلدك حق لى على إنسان، وأشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجرى مجرى الحقيقة التى لايشكل أمرها. فليس هو كذلك أبدا، بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأنق لها. وجملة الأمر أن سبيله سبيل المجاز اللغوى، فكما أن من

الاستعارة والتمثيل عاميا، وخاصيا لايكمل له كل أحد كذلك الأمر فى هذا المجاز الحكمى[١].

ومن أسباب الدقة فى المجاز العقلى أن يأتى وقد تهيأ النظم له بالخصائص التعبيرية الملائمة التى تجعله يقع موقعا لطيفا مؤثرا فى جملة النظم، متأثرا به، ويضرب الشيخ عبد القاهر مثالا لذلك بقول الشاعر :

تناس طلاب العامرية إذ نأت
بأسجح مرقال الضحى قلق الضفر[٢]
إذا ما أحسته الأفاعى تحيزت
شواة الأفاعى من مثلمة سمر
تجوب له الظلماء عين كأنها
زجاجة شرب غير ملأى ولاصفر

يصف الشاعر جمله ويقول : إنه تناسى به طلاب العامرية فهو معتدل الوجه، سريع السير، ضامر البطن، تتلوى الأفاعى وتنقبض عندما تحسه خوفا من أخفافه التى انكسرت حروفها من كثرة السير، وهو يقطع ظلمة الليل بعين صافية تشبه زجاجه يجول فيها الماء ولم تمتلئ به. والشاهد فى قوله «تجوب له الظلماء عين» حيث أسند جوب الظلماء إلى العين، وهو فى الأصل للجمل، والعين سبب فى ذلك ووسيلة له. ففى الجملة مجاز عقلى علاقته السببية.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٩٥، ٢٩٦ باختصار فى آخره.

(٢) أسجح: وجهه سهل معتدل اللحم قليله. مرقال الضحى: سريع السير فى هذا الوقت. الضفر: مايشد على البعير من شعر مضفور، وقلق الضفر كناية عن ضموره، شواة الأفعى: جلدها، أو رأسها. مثلمة: منكسرة حروفها. تجوب: تقطع. شرب : جمع شارب. صفر: خالية.

وقد هيأ الشاعر لهذا المجاز بالخصائص التى تجعله دقيقا لطيفا حسن الموقع وفى ذلك يقول الشيخ عبد القاهر: فأنت الآن تعلم أنه لولا أنه قال : «تجوب له» فعلق «له» بتجوب، لما صلحت «العين» لأن يسند «تجوب» إليها، ولكان لاتتبين جهة التجوز فى جعل «تجوب» فعلا للعين كما ينبغى. وكذلك تعلم أنه لو قال مثلا: تجوب له الظلماء عينه، لم يكن له هذا الموقع، ولا ضطرب عليه معناه، وانقطع السلك من حيث كان يعييه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به الآن فتأمل هذا واعتبره(١).

فبين الشيخ مافى النظم من خصائص هيأت للمجاز وأكسبته الفضيلة وهى: تعليق «له» بتجوب، ولو قال : تجوب الظلماء عين بدون «له» لما ارتبط الكلام بالجمل المتحدث عنه، وما صلحت العين لأن يسند «تجوب» إليها، لأنها عين دون صاحب فلايمكنها أن تجوب الظلماء، ولأنه لم يكن حينئذ فى الكلام دليل على أن اهتداء صاحبها فى الظلماء ومضيه فيها بنورها. كذلك: تنكير «عين» ولو عرفها بإضافتها فقال «عينه» لكان التركيب مضطرب المعنى غير واقع موقعا حسنا، ولانقطع سلك الكلام، إذ لايستطيع أن يصف العين وهى معرفة بما وصفها به وهى نكرة، لأن تنكيرها هو الذى هيأ له وصفها بذلك، وبهذه التهيئة لطف المجاز ووقع موقعا حسنا فى النظم.

السكاكى والمجاز العقلى :

خالف السكاكى جمهور البلاغيين فى المجاز العقلى، فرأى أنه من قبيل الاستعارة بالكناية، وينبغى أن ينظم فى عقدها، فقد عقد فصلا للمجاز العقلي حدد فيه ضابطه، وتحدث عن صوره ودقائقه مستعينا بكثير

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٩٩.

من الأمثلة، وفى نهاية الحديث عنه بين أن ما ذكره فى هذا الفصل تقرير للكلام بحسب رأى الأصحاب، أما رأيه فى ذلك فهو نظم المجاز العقلى فى سلك الاستعارة بالكناية.

وذلك: بجعل الربيع فى قولهم : أنبت البقل، استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بواسطة المبالغة فى التشبيه، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة للاستعارة، وبجعل «الأمير» فى قولهم: هزم الأمير العدو، استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى، وهو الجند الهازمون، وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة[١]، وهكذا فى جميع أمثلته.

والاستعارة بالكناية عند السكاكى هى: أن تذكر المشبه وتريد به المشبه به، دالا على ذلك بقرينة هى: نسبة شئ من لوازم المشبه به للمشبه[٢]. فالأمير فى المثال السابق مشبه، وهو الفاعل المجازى، والجند شبه به، وهو الفاعل الحقيقى، وقد حذف المشبه به وأثبت لازمه وهو الهزم للمشبه المذكور ليكون قرينة دالة على المراد.

ولم يلق رأى السكاكى قبولا عند الخطيب فرد عليه ردا مفصلا فقال: وفيما ذهب إليه السكاكى نظر[٣]:

١- لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة فى قوله تعالى(**فهو فى عيشة راضية**) [٤] صاحب العيشة لا العيشة، وبماء فى قوله تعالى

---

(١) مفتاح العلوم: ٤٠٠، ٤٠١.

(٢) السابق : ٣٧٨.

(٣) انظر ردود الخطيب فى بغية الإيضاح : ٨١/١، ٨٢، وانظر فى بيانها : شروح التلخيص: ٢٦٣/١-٢٧٢.

(٤) الحاقة: ٢١.

(خلق من ماء دافق) [١] فاعل الدفق لا المنى، بناء على تفسيره للاستعارة بالكناية، وذلك لأن مذهب السكاكى- كما قدمنا- أن المشبه وهو الفاعل المجازى يراد به المشبه به وهو الفاعل الحقيقى، والصاحب فى المثال الأول فاعل حقيقى، والعيشة فاعل مجازى، فيكون المراد بالعيشة صاحبها، وهذالايصح لأن المعنى سيكون: فهو فى صاحب عيشة راض صاحبها ولامعنى لهذا لما فيه من ظرفية الشئ فى نفسه.

والإنسان فى المثال الثانى فاعل حقيقى، والماء فاعل مجازى، فيكون المراد بالماء الإنسان، وهذا لايصح لمافيه من خلق الإنسان من نفسه.

٢- ولأنه يستلزم ألا تصح الإضافة فى نحو: زيد نهاره صائم وليله قائم، من كل ما أضيف فيه الفاعل المجازى إلى الفاعل الحقيقى. لأن المراد بالنار وبالليل زيد نفسه لما تقرر من أن المراد بالفاعل المجازى هو الفاعل الحقيقى، فيكون من إضافة الشئ إلى نفسه، وهذا لايصح.

٣- ولأنه يستلزم ألا يكون الأمر بالإيقاد وبالبناء فى قوله تعالى **(فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا)** [٢] وفى قوله تعالى **(ياهامان ابن لى صرحا)** [٣] لهامان وهو الفاعل المجازى، بل يكون للعملة وهم الفاعل الحقيقى، مع أن النداء فى الآيتين لهامان، فيجب أن يكون الأمر له كذلك، وإلا صار الكلام: يا هامان ابن ياعملة فيكون النداء لشخص، والخطاب لغيره.

---

(١) الطارق : ٦.

(٢) القصص: ٣٨.

(٣) الفاعل الحقيقى هو الضمير فى نهاره وليله، والفاعل المجازى هو الضمير فى صائم وقائم.

٤- ولأنه يستلزم أن يتوقف جواز التركيب فى نحو قولهم : أنبت الربيع البقل وشفى الطبيب المريض، وسرتنى رؤيتك، مما يكون فيه الفاعل الحقيقى هو الله تعالى على السماع من الشارع لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فلايجوز أن يسمى الله تعالى بما لم يسم به نفسه، مع أن توقف هذا الاستعمال على السماع غير ثابت، فهو شائع وذائع على ألسنة الخلق دون تقيد بالسماع.

واللوازم الأربعة منتفية كما بينا، فينتفى كون المجاز العقلى من باب الاستعارة بالكناية لأن انتفاء اللازم يوجب انتفاء الملزوم.

٥- ولأن ماذهب إليه السكاكى منقوض بنحو قولهم : نهاره صائم وليله قائم، مما اشتمل على ذكر الفاعل الحقيقى مع المجازى[١]، وذلك لاشتماله على ذكر طرفى التشبيه، ومايشتمل على ذكر المشبه والمشبه به يمتنع حمله على الاستعارة، وقد صرح السكاكى بهذا فى كتابه[٢].

وبهذه الأسباب الوجيهة رد الخطيب رأى السكاكى ولم يقل به، وتطوع أصحاب الشروح والحواشى للإجابة عن السكاكى، ودار بينهم نقاش وأخذ ورد خرج إلى أمور عقلية تأباها طبيعة البحث البلاغى الذى ينبغى أن يقوم على تذوق الأساليب بغية الوصول إلي خصائصها وأسرارها.

ونرى أن المجاز العقلى طريق تعبيرى يختلف فى أصله عن الاستعارة بالكناية، فهى تقوم على التشبيه والعلاقة فيها مبناها على المشابهة، أما

---

(١) غافر: ٣٦.

(٢) انظر مفتاح العلوم: ٣٥٤.

المجاز العقلى فطريقه الإسناد والقصد فيه إلى إثبات شئ لشئ دون ارتباط بالتشبيه والمشابهة، وتخريجه على الاستعارة المكنية يبعده عن أصله، ويدخله فى نمط آخر من الأساليب.

وفى حديث الشيخ عبد القاهر عن المجاز العقلى بين أن قولهم: صاغ الربيع، وحاك الربيع، ليس من قبيل التشبيه، لأنه يقتضى شيئين مشبها ومشبها به، وليس من قبيل الاستعارة، لأن معنى الاستعارة أن تعير المشبه لفظ المشبه به، وليس معناه فى «صاغ الربيع» أو «حاك الربيع» إلا شئ واحد، وهو الصوغ أو الحوك، فتقدير الاستعارة فيه محال، وجار مجرى أن تشبه الشئ بنفسه، وتجعل اسمه عارية فيه، وذلك بين الفساد (١).

وكثير من صور المجاز العقلى إذا فسرت على الاستعارة بالكناية ذهب مافيها من روعة وخرجت عن المراد، فلو قلت فى قول الفرزدق: سقاها خروق فى المسامع: أنه شبه الخروق بالساقى تكون قد فسرت الشعر علي غير مراده، وأجريته على غير طريقته، لأن الفرزدق لم يلحظ هذا، وإنما أراد أن يقول: إن ذكر قومه وصيتهم البعيد الذى ملأ الأسماع كان سببا قويا فى أن أفسح الناس لهذه الإبل، ولم يتعرض لها أحد، فبالغ فى هذه السببية حين صيرها فاعلة الفعل فجعل الذكر هو الساقى (٢).

ويمكنك أن تدرك نحوهذا عند التأمل فى أمثلة المجاز العقلى، مما يجعلك تحكم على مذهب السكاكى بالضعف والقصور. وقد تلحظ فى بعض صور المجاز العقلى أنه يمكنك تشبيه الفاعل المجازى بالفاعل الحقيقى، ولكن هذا لايدعوك إلى الحكم عليها بأنها من قبيل الاستعارة

---

(١) أسرار البلاغة ٣٨١، ٣٨٣.

(٢) خصائص التراكيب : ١٠٣.

المكنية، لأن التشبيه غير مراد، وإنما القصد إلى الإسناد المجازى وإثبات شئ لغير ماهو له.

قيمة المجاز العقلى وأثره فى الأسلوب:

المجاز العقلى لون أسلوبى خلاب، من ألوان التفنن فى التعبير، والتوسع فى البيان، يهيئ للمنشئ مادة تعبيرية واسعة يستطيع من خلالها التعبير عن مراده، وإظهار معانيه النفسية فى صورة بديعة غزيرة الإيحاء قوية التأثير. وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى هذا بقوله: وهذا الضرب على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان، والاتساع فى طرق البيان، وأن يجئ بالكلام مطبوعا مصنوعا، وأن يضعه بعيد المرام، قريبا من الأفهام(١).

وبجانب ذلك فللمجاز العقلى أثر فى الأسلوب من ناحية اللفظ والمعنى والتصوير. فمن ناحية اللفظ نراه يكسو الكلام عذوبة وحسنا، ويبرزه قوى السبك موجز اللفظ، ولاشك فى وجود فرق فى الصيغة يحسه الإنسان عندما يقرأ عبارات جاءت على المجاز العقلى ثم جاءت على الحقيقة العقلية، فتلحظ دقة الصياغة وحلاوة اللفظ وجمال الإيجاز فى قولهم: عيشة راضية، وجد الجد، وجاء بى الشوق إليك. وعلي خلاف ذلك تجد الغثاثة والبرودة والترهل فى قولهم: عيشة راض صاحبها، وجد صاحب الجد، وجاءت بى نفسى بسبب الشوق إليك.

ومن ناحية المعنى نجده يكسبه الفخامة والمبالغة، وقد بين الشيخ عبد القاهر ذلك بعرض بعض أساليب المجاز العقلى مقررا فضيلتها المعنوية

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٩٥.

عند المقارنة بينها وبين مجيئها على الإسناد الحقيقى فقال :.. إن من شأنه أن يفخم عليه المعنى، وتحدث فيه النباهة... فليس يشتبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه فى قوله :* فنام ليلى وتجلى همى*(١) كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: فنمت فى ليلى وتجلى همى.. ومن الذى يخفى عليه مكان العلو، وموضع المزية، وصورة الفرقان بين قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم)(٢) وبين أن يقال : فماربحوا فى تجارتهم؟! وإن أردت أن تزداد للأمر تبينا فانظر إلى بيت الفرزدق:

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا
ضرب تطير له السواعد أرعل(٣)

وإلى رونقه ومائه، وإلى ما عليه من الطلاوة، ثم ارجع إلى الذى هو الحقيقة، وقل «نحمى إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل» ثم اسبر حالك. هل ترى مما كنت تراه شيئا؟(٤).

كما أن المجاز العقلى يؤكد المعنى المقصود ، ويقوى صدوره عن الفاعل الحقيقى، لأنه كالإثبات بالدليل، فحين نسند الفعل إلى فاعل مجازى فهذا يؤكد صدور الفعل عن الفعل الحقيقى، لأنه إذا صح أن يكون الفعل من الفرع الذى هو الفاعل المجازى فإن وقوعه من الأصل آكد وأقوى(٥).

---

(١) قائلة رؤبة بن العجاج وقبله قوله : *حارث قد فرجت عنى غمى*

(٢) البقرة: ١٦.

(٣) اخترط السيف: سله. أرعل: أهوج لايبالى ما أصاب.

(٤) دلائل الإعجاز: ٢٩٤، ٢٩٥.

(٥) انظر خصائص التراكيب: ١٠٧.

وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى هذا حين قال: والنكتة أن المجاز لم يكن مجازا لأنه إثبات الحكم لغير مستحقه، بل لأنه أثبت لما لايستحق تشبيها ورداً له إلى مايستحق، وأنه ينظر من هذا إلى ذاك، وإثباته ما أثبت للفرع الذى ليس بمستحق يتضمن الإثبات للأصل الذى هو المستحق، فلايتصور الجمع بين شيئين فى وصف أو حكم من طريق التشبيه والتأويل حتى يبدأ بالأصل فى إثبات ذلك الوصف والحكم له. ألا تراك لاتقدر على أن تشبه الرجل بالأسد فى الشجاعة مالم تجعل كونها من أخص أوصاف الأسد وأغلبها عليه نصب عينيك، وكذلك لايتصور أن يثبت المثبت الفعل للشئ على أنه سبب مالم ينظر إلى ماهو راسخ فى العقل من أن لافعل علي الحقيقة إلا للقادر(١).

ومن ناحية التصوير نرى الإسناد المجازى يسبغ الحياة على الجمادات ويصورها فى صورة القادر، فالأسباب والأزمنة والأمكنة وغيرها فاعلة متصرفة، فالتجارة تربح وتخسر، والعيشة ترضى وترفض، والربيع ينبت الزرع والخريف يميته، والأرض تخرج أثقالها وتأخذ زخرفها وتتزين، والنهار يصوم والليل يقوم، والجد يجد، والأمر يعزم، وفى هذا من الخلابة وجمال التعبير وحسن البيان مافيه.

وبعد أن فصلنا الحديث في جوانب المجاز العقلى وأوضحنا قيمته الفنية، وأثره الجليل فى الأسلوب، فإن الدهشة تعترينا حينما نرى بعض الباحثين يغمطونه قدره، ولايرون فيه إلا أنه مظهر من مظاهر غلبة علم الكلام على الدراسات البيانية، وأن الأولى به أن يضم إلى مباحث علم الكلام، لأنه كلام فى الأثر والمؤثر والصنعة والصانع، وعبارات

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٣٥، ٣٣٦.

«عبد القاهر» فى دراسته تصرح بأنه يبحث فى الدين أكثر مما يبحث فى الأدب والبيان[1].

ومثل هذا الكلام مردود عليه بما بيناه فى صفحات هذا البحث، وظهور النزعة الكلامية فى مباحث المجاز لايعيبه ولاينقص من قيمته، فقد تكفل المجاز بحل كثير من المعضلات الكلامية، ولاضير على البليغ فى استصحاب بعض أمور العقيدة عند النظر فى الأساليب طالما أنها تعين على فهمها وبيان خصائصها، ومن الثابت أن معتقدات الإنسان توجه سلوكه، وتؤثر فى تفكيره، ويظهر أثرها فى أسلوبه وتعبيره، وقد تواضع علماء المسلمين على الربط بين المباحث الدينية ومايتلاءم معها من مسائل العلوم على اختلاف ألوانها، ليكون العلم فى خدمة العقيدة وإعلاء كلمة الدين.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

أ.د/ الشحات محمد أبو ستيت

---

(١) انظر البيان العربى : ٢٦٩، ٢٧٠ وفلسفة البلاغة : ٧٣-٨٩.